على طريق الأصالة

(١٦)

رياح السموم

التي هبت على الفكر الإسلامي

أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

رياح السموم

التى هبت على الفكر الإسلامى

إعادة طرح الفكر الباطنى والأباحى القديم فى أفق الاسلام مجدداً

محاذير كثيرة وأطروحات عديدة ألقيت فى أفق الفكر الاسلامى من أجل تزييفه وتدميره وإفساد وجهته والقضاء على طابعه المتميز، ووجهته الخالصة للتوحيـد، فقدكان تراث الفكر الوثنى والمادى والاباحى (فكر طفولة البشرية) التى حملت لوائه الفرق الضالة وتخصصت فيه جماعات اليهود والمجوس والباطنية، يحاول دائماً أن يقتحم الفكر الاسلامى - كما اقتحم الفكر اليهودى والمسيحى من قبل - من أجل إخراجه من ذاتيته الخاصة تحت إسم الفكر العالمى أو الانسانى أو البشرى ومن خلال الدعوة إلى الاقتباس أو التبادل الثقافى أو التقارب والالتقاء.

كان أخطر هذه الاقتحامات الخطيرة التى أحدثت آثاراً بعيدة المدى فى مجريات الفكر الاسلامى (الدعوة السبأية) التى قادها عبد الله ابن سبأ والتى كان لها أبعد النتائج أثراً فى تاريخ الاسلام.

وهم الذين أدخلوا مفاهيم الفكر اليهودى إلى الاسلام ذلك أن عبدالله ابن سبأ هو الذى ادعى الربوبية فى الامام على؛ فقد زعم أنه هو الله

(تعالى الله عن ذلك) وقال له على رضى الله عنه : ويلك قد سخر منك الشيطان فارجع عن هذا ثكلتك أمك ونفاه إلى المدائن .

وعبد الله بن سبأ هو الذى قاد الفتنة بين الصحابة وحاك مؤامرة مقتل عثمان ووقوع الخلاف بين الصحابة بعدها ، وكان عبد الله بن سبأ يهودياً رافضياً اعتنق السبأية وحمل لواء (الرافضية) مدخلا إلى الفكر الوثنى الذى ترجم فى عصر المأمون وأخطاره فكر المعتزلة والتصوف الفلسفى .

وقد ذكر ابن عبد ربه فى العقد الفريد رواية نسبها إلى الشعبى فى حديث له مع مالك بن معاوية جاء فيها :

(أحذرك الأهواء المضلة وشرها الرافضة فإنها يهود هذه الأمة يبغضون الإسلام ولم يدخلوا فيه رغبة ولا رهبة من الله ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبغياً عليهم وقد حرقهم على بن أبى طالب بالنار ونفاهم إلى البلدان ، ومنهم عبد بن سبأ نفاه إلى ساباط ، وقيل إن عبد الله بن سبأ زار الحجاز والبصرة والكوفة والشام ومصر واتصل فى هذه الأقطار عن طريق المراسلة حتى يتمكن من تأجيج نار فتنة لم تخمد حتى اليوم .

• • •

وكانت ترجمة الفلسفة اليونانية أخطر مراحل التداخل لاحتواء

الإسلام وفكره ، حمل لوائها المأمون وجند لها حنين بن إسحاق (وكان يدين بالنصرانية على المذهب النسطورى وكان المطلوب ترجمة كتب العلوم فترجم حنيناً وأصحابه كتب الفلسفة وأدخلوا إليها مفاهيمهم ، وكان أول الشر فى الاعتزال الذى نقل من الفكر الفلسفى اليهودى والنصرانى حيث نقلت فكره خلق القرآن من هذا الفكر الوثنى وحمل لوائها الغلاة ومال إليهم المأمون وفرض الفكرة على الناس وامتحن بها المسلمون خلال عهود المأمون والمعتصم والواثق ولم يصمد أمام المحنة إلا إمام المسلمين أحمد بن حنبل الذى قال (القرآن كلام الله غير مخلوق) .

وطلب المأمون كتب اليونان فأرسل له امبراطور الروم منها ما يفوق الوصف . وقال أحد رجال الدين المسيحى: الرأى أن نعجل بإنفاذ هذه الكتب إلى الخليفة فإن هذه العلوم ما دخلت دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت الفتنة بين علمائها .

ولكن هذه المحنة ما لبثت أن كشفها الله تبارك وتعالى فأفل نجم المعتزلة فى عهد المتوكل ، واستجاشت السنة وأهلها وارتفع شأن ابن حنبل فوق كل مقال .

• • •

وكان للفلسفة اليونانية آثارها الخطيرة فى محاولة تزييف أصالة

مفهوم الإسلام وقد واجهها المسلمون منذ اليوم الأول بكل قوة وكشفوا زيفها ومخالفتها لمفهوم الإسلام وكيف أن (أرجانون) اليونان قائم على (علم الأصنام) وعبودية البشر للامبراطور المدعى بالألوهية .

وكانت كتابات الإمام الشافعى وأحمد بن حنبل والغزالى وابن تيمية قد صححت المفاهيم وأعادت مفهوم الإسلام الأصيل .

• • •

وفى مجال (الشعر) دخلت وسائل الغزو لتخرج الشعر العربى من أصالته وإسلاميته ومفهومه المرتبط بالبطولة والسماحة والكرامة والوفاء ، وذلك حين نقلت إليه سموم الآداب الفارسية والهندية القديمة المرتبطة بالإباحة والخمر والإسراف فى الإقبال على المتع والمغريات والدخول فى مجالات إباحية خطيرة على النحو الذى عرف فى شعر أبو نواس وبشار والضحاك وغيرهم من شعراء الغلمة والغزل المذكر .

وظهر من الشعراء من تأثروا بالفلسفة اليونانية ومفاهيمها ومن تأثر بالرواقيين بالذات أمثال المعرى فى امتناعه عن أكل اللحم وتمنيه أن لو لم يوجد الإنسان لأنه شرير فاسداً ، فضلا عن كراهيته للدنيا وحبه للعدم بدلا من الحياة وكراهيته لبناء الأسرة والزواج

حتى استحسن وأد البنات كعادة الجاهلية فضلا عن إعلانه اعجابه بفئة الرهبان وكراهته تعايم المرأة وإعجابه بحرق الهنود موتاهم ، وقد رأى أن لا يأكل الحيوان ولا ما خرج منه كذهب أهل الهند ، وبذلك خرج خروجاً واضحاً عن مفهوم الإسلام .

ولم يكن ذلك بأقل من فعل أبو نواس فى الناحية الأخرى فى العبث والمجون حيث وقف حياته على التغزل بالغلمان غزلا فاحشاً يعد وصمة عار فى جبينه ولم يهتم بالنساء اهتمامه بالغلمان ، ولقد أحب الخمر حباً عظيما وأخلص لها ، وظل هو وجماعته من المجان والزنادقة يتسكعون فى حانات بغداد والكرخ .

هذا هو المعرى الذى أحبه طه حسين ، وهذا أبو نواس الذى أعجب به عميد الأدب وفضله على المتنبى ، الشاعر الذى عاش فى أنفاس الحانة ولم يقف يوماً موقفاً مشرفاً فى حرب أو جهاد ، الرجل المخمور دائماً والذى يعيش فى نشوة وطرب حيث الدنان والكؤوس المترعة بالسلاف ، يهاجم الدين تطرفاً وتندراً يثير الضحك عند سامعيه ، وكأنه يضيق بالدين لأنه يهاجم محبوبته الخمر ويحرمها .

• • •

ثم جاءت عاصفة الفكر الباطنى فى مجال وحدة الوجود والحلول والتناسخ ، حمل لواءها قوم مجوسى الأصل ، ومن اليهود ، وجاء

الراوندوية والزنج والقرامطة المجسمة والقدرية .

ونقلت إلى أفق الفكر الإسلامى مذاهب الشعوذة الهندية والباطنية الفارسية القديمة ، وتركز هذا الفكر فى مصدر وضعوه فى مقام الإمام لهم هو (رسائل إخوان الصفا) .

• • •

وفتح أعداء الإسلام باب الأساطير بعد أن جاء الإسلام ليحرر البشرية من ضلالها ، ويقدم للإنسانية منهجاً كاملا لما وراء الغيب لا يحتاج معه الإنسان إلى مزيد من البيان الصادق ، وقد كانت الأساطير تصور بمنطق العقل البدائى ظواهر الكون والطبيعة والعادات الاجتماعية فجاء الإسلام ليقدم الحقائق

ولكن الغزاة استطاعوا أن ينقلوا إلى أفق الفكر الإسـلامى أساطير الأمم الوثنية الضائع ، فرعونية وفارسية وهندية بما يسمى (الميثولوجيا) وما يتصل بها من آلهة الإغريق ، ترجمها قوم من قومنا بتحريض من المستشرقين والمبشرين فى محاولة لإدخال مفاهيم ضالة مسمومة ، اختلطت بالشعر والمسرحيات وبالأدب ، كما جددوا الأساطير العربية القديمة التى حرر علماء المسلمين منها السيرة النبوية فأعاد أمثال طه حسين طرحها من جديد مع انتحال أساطير أخرى ، فى كتابه (على هامش السيرة) وقد صور الدكتور محمد حسين هيكل

هذا الاتجاه بأنه اتجاه خطير من حيث حرص المسلمين طوال العصور على تنقية سيرة الرسول ﷺ من الأساطير وإبعادها عن الروايات الخيالية والوهمية التي حاولت الإسرائيليات إلصاقها بها .

وقد جرت المحاولات الضخمة في العصر الحديث من أجل إدخال الخرافة والأساطير إلى الأدب العربي والفكر الإسلامي ، في الوقت الذي رفض المسلمون في القرن الثالث ترجمة أساطير الأمم وقالوا إنها أهواء الشعوب وإنهم لا حاجة لهم بها إذ لكل أمة فنونها وللمسلمين فنهم وهو الشعر .

ولكن العصر الحديث جاء في إطار النفوذ الأجنبي ففرض على المسلمين ترجمات الإلياذة الإغريقية والشاهنامة الفارسية والروايات الهندية والأساطير المصرية .

هـــذه الأساطير التي تمثل ركام الفكر البشري القائم على أهواء النفوس والمشبع بالإباحية والمادية وفساد الذوق وتصورات الطفولة البشرية وكلها مما جاء الإسلام للقضاء عليها وهدمها .

وهي في مجموعها تختلف عن مفهوم الإسلام الجامع ، ومفهوم الدين الحق ، سواء بإشاعة روح الفساد الخلقي أو تغليب الوجدان المترف أو المادية المسرفة أو تمجيد القوة أو عبادة الأجساد وكلها تصور الآلهة وهي في صراع مع الإنسان وتجمع إلى قدرة الآلهة حماقات

البشر وتجعل قانونها شهوانياً وتخبط كيفما قادتها البدوات والنزوات ويتميز أساطير الإغريق بعبادة الطبيعة والأجساد العارية .

. . .

(٢)

لقــــد كانت المؤامرة فى العصر الحديث ترمى إلى إفساد أصالة وسماحة الفكر الإسلامى المستمد من القرآن الكريم والسنة المطهرة ولذلك عمل رجال الاستشراق والتبشير والغزو الثقافى والشعوبية جميعاً على إعادة طرح الفكر الباطنى والوثنى والشعوبى القديم فى أفق الفكر الإسلامى مجدداً تحت إسم إعادة كتابة التراث ، أو إعادة كتابة التاريخ فأعيد إحياء الدعوة السبأية وما يتصل بها من فكر الرافضة والفكر المعتزلى والتصوف الفلسفى ، وإحياء ترجمات الفلسفة المادية وإعادة ترجمة كتب الأساطير اليونانية القديمة والدعوة إلى أبى نواس وبشار وابن الراوندى ، والمعرى والسهروردى والحلاج وابن المقفع على نحو جديد بإغراء الشباب المثقف لما تحويه كتابات هؤلاء من سموم وإغراءات خادعة للشباب ومذاهب ترمى إلى رفع التكليف وتحسين الإباحة والمجون والغواية .

وجرت المحاولات لفرض اتباع الفكر اليونانى القديم الذى هو علم الأصنام وما يتصل به على العلوم الإسلامية .

وكان أبرز من ركز الاهتمام عليهم : ابن سينا والفارابى فى مجال الفلسفة ، والسهروردى وابن سبعين والحلاج فى مجال التصوف الفلسفى وابن مسكويه فى مجال الأخلاق ويوحنا الدمشقى ونصير الدين الطوسى، وكل هؤلاء من أعداء مفهوم الإسلام الأصيل والمخالفين له . وقد تأثروا بمفهوم اليونانى للأخلاق كما تأثروا بأفلاطون فى جمهوريته وبأرسطو وخاضوا وراء مفهوم العقول العشرة ونظريات الفيض وغيرها ، وكلها نظريات باطلة وزائفة يحاولون اليوم إعادة إحيائها من جديد .

بينما يوجه إلى الأئمة الأعلام الذين حرروا الفكر الإسلامى من التبعية أمثال الغزالى وابن تيمية وابن حنبل والشافعى إعراضاً شديداً ومؤامرة للصمت الطويل .

• • •

ثم كانت الدعوة إلى إحياء التراث الشعبى القديم (الفلكلور) محاولة أخرى لرد المسلمين إلى الفكر البشرى القديم فقد اتخذت وسيلة لإذاعة العاميات وجمع الأزجال والمواويل والأمثلة العامية على نحو أراد به دعاة التعريب والغزو الثقافى أن يثبتوا أن العامية ليست لهجة ولكنها لغة واتخذوا من ذلك سلاحاً لمعارضة الفصحى وإضعافها وتغليب العاميات عليها .

وقد بدأت حركة الفلكلور على أيدى المبشرين ودعاة التغريب الذين حملوا لواء الدعوة إلى العامية واللغة المحكية فى محاولة لإقصاء الفصحى : لغة القرآن ، عن مكان الصدارة وتعزيز العامية فى كل قطر وبلد مستهدفين تفكيك وحدة الأمة وإبعادها عن مستوى بلاغة القرآن الكريم وآدابه .

كما عمدت دعوة الفلكلور إلى استحياء الماضى القديم الوثنى البائد من وراء عصر الإسلام ، فهى قد ارتبطت بالفرعونية فى مصر ، والفينيقية فى لبنان وكانت تحاول بذلك إحياء قيم قديمة ماتت وانتهت وتقاليد ومظاهر وأعياد عرفها العرب إبان وثنيتهم ثم تحرروا منها مع ظهور الإسلام ولم يعودوا مرة أخرى إليها بعد أن جاءهم الإسلام بالتوحيد الخالص فقضى على هذه الوثنيات القديمة البائدة التى تتعارض اليوم مع الثقافة الإسلامية والقيم القرآنية جميعاً .

ولقد جرى الفلكلور فى مجارى ثلاث كلها بعيدة عن جوهر ذاتية الأمة ومزاجها النفسى ، إما بإحياء الوثنيات الفرعونية أو العادات الجاهلية العربية أو الوثنية الإغريقية ، وهذه الثلاث لا تتصل مطلقاً بحقيقة الأمة الإسلامية التى تحررت منذ خمسة عشر قرناً من هذه الطقوس والوثنيات .

ولقد كان واضحاً أن هذه الخطة جزء من المؤامرة المدبرة لتزييف

أصالة المفهوم الإسلامى فإن الفلكلور فى حقيقته يقوم على احياء أوهام الشعوب وأهوائها وعلى أدنى قدر من العواطف والمشاعر التى تتعلق بها النفوس المحدودة الأفق فى مرحلة ضعفها وسذاجتها حيث لم تكن وصلت إلى ثقافة الدين الحق الذى يوجهها أساساً إلى التحرر من الوثنيات والماديات ، وفرق كبير بين الفلكلور من ناحية وبين التاريخ والتراث ، فقد ركز على إحياء الإقليميات والوثنيات والتقاليد والعادات التى انحرفت عن مفهوم العقائد الصحيحة مما صنعه الإنسان فى حالات الضعف البشرى فى مراحل الالتقاء الاجتماعى العام وهى فى مجموعها خارجة عن أصول الدين الحق الذى هدينا إليه ، ولذلك فإن إحياء هذا النوع من التراث هو إحياء لدعوة التفرقة والجهل والتمزق .

وبالنسبة للأغانى والمواويل فإنها فى مجموعها خواطر ساذجة لا تمثل من النفس الإنسانية إلا أدنى مراتبها وهى فى مجموعها تقوم على الأهواء حيث تنسى قبول المسلم لأمر الله فى حالات الموت أو المصيبة وفى حالات الفرح أيضاً بديلا عن هذه الترهات والصرخات التى يرددها الفلكلور .

• • •

ولقد كانت الإسرائيليات المتجددة من أخطر التحديات التى واجهت الإسلام والفكر الإسلامى ، فإنما هى تمثل إضافات خطيرة

ونظريات باطلة مستمدة من نصوص قديمة ، وثنية ومجوسية من خارج مفهوم الإسلام وذاتيته المختلفة عن الأديان والفلسفات ، تسربت مع الزمن وقصد إلى إضافتها خصوم الإسلام وأعدائه رغبة فى عزله عن جوهره الأصيل ، وقد شكلت مع الزمن قشرة صلبة أو حاجزاً خطيراً عازلا عن مفهوم الإسلام فى بساطته ووضوحه ويسره وإيجازه وأضافت تفاصيل كثيرة باطلة وتوسعات عديدة تتعارض أساساً مع مفهوم الإسلام القائم على التوحيد والإيمان بالغيب والبعث والجزاء فى مواجهة مختلف القضايا .

وقد أضيف إلى الإسرائيليات مع تطور الفكر الإسلامى إضافات أخرى تسربت مع الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية وغيرها مما كون حصيلة ضخمة استعملها الشعوبيون وأعداء الإسلام والعرب فى القديم سلاحاً لتحويل الأنظار عن مفهوم الإسلام الأصيل وجوهره وإخراجه من مضامينه ، وقد واجه المفكرون المسلمون هذه الدخائل الإسرائيلية الباطنية المجوسية وغيرها وفندوها وكشفوا عنها ، وفى مقدمة من تولى ذلك الجاحظ فى (البيان والتبيين) والقاضى ابن العربى فى (العواصم من القواصم) وابن الجوزى فى (تلبيس إبليس) كما واجه هذه القضايا ابن حزم والغزالى وابن خلدون وعرضوا لآراء الباطنية والمجوسية والمزدكية والمانوية وغيرهم ، ولا سيما تلك العقائد والأساطير التى دسها اليهود والنصارى فى مفاهيم الإسلام .

وفى مقدمة هذه الإسرائيليات تلك الإضافات الزائفة للنصوص الثابتة أو التفسيرات للآيات القرآنية والتوسع فى أوصاف الملائكة والجنة والنار والحشر ويوم القيامة وتصويرها تصويراً حياً .

وقد انداحت هذه الاسرائيليات فى كتب التفسير وغيرها خلال فترة الضعف وفى مؤلفات لم يكتبها علماء محققون حيث جمعت أحاديث منحولة وأكاذيب ومفتريات مدسوسة ، وفى مقدمة هذه المؤلفات بدائع الزهور والعرائس فى القصص والأخبار .

وكان لدائرة المعارف الاسلامية (التى كتبها عتاة المستشرقين ومتعصبيهم) أثر بالغ فى ترويج هذه الاسرائيليات مما جمعه السدى والكسائى والثعلبى والخازن وغيرهم فالتصقت بالتفسير ، وقد عارض المفكرون المسلمون هذا الاتجاه وشجبوه وفى مقدمتهم العلامة ابن خلدون . غير أن دائرة المعارف الاسلامية وكتابها جميعاً من خصوم الاسلام نقلت هذه الآراء وبوبتها وعدتها مصادر صحيحة ، وجاء جولدزيهر اليهودى فدافع عن كعب الأحبار وزملائه .

وقد ركزت دائرة المعارف الاسلامية على كتب المحاضرات التى لم تكن فى حقيقتها كتباً علمية وإنما جمعت ما قاله الرواة وأحلاس المجالس من قصص وتناقلوه من أوهام ، وفى فترة من فترات التاريخ الاسلامى استشرت كتب المحاضرات التى جمعت ما تجمع من أساطير الأمم السابقة ورواياتها وخرافاتها وسفرها وحكمها ، وقد بدا ذلك

على أنه تراث يكشف للمسلمين علامات فكرهم الاصيل ، غير أنه فى خلال مراحل الضعف التى مرت بتاريخ المسلمين ومع ضغط قوى الغزو الأجنبية من مجوسية وباطنية ودعاة الفلسفة اليونانية فقد جمعت هذه الأساطير وشكلت تياراً زائفاً من الدخائل وإضافات التقليد والابتداع تلقفه المستشرقون وتاجروا به وحاولوا أن يقدموه على أنه من مصادر الفكر الاسلامى مما دعا رواد اليقظة الاسلامية والباحثين المنصفين إلى الاشارة لهذه الآثار والتحذير من اعتمادها مصادر علمية وكشفوا عن أخطائها وسمومها على النحو الذى أوضحناه بالاشارة إلى ألف ليلة والأغانى وكليلة ودمنة ورسائل إخوان الصفا وغيرها مما اعتمد عليه الدكتور طه حسين وأتباعه فى كتابة أبحاثهم ومما يجب الحذر الشديد منه .

ومن ذلك كتاب المضنون به على غير أهله والمنسوب إلى الامام الغزالى كذباً وبهتاناً وكتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة وهو كتاب لقيط مجهول النسب حيث تجد أسلوب القول فيه يخالف أسلوب ابن قتيبة فى كتاب المعارف وفى سائر كتبه وفيه روايات لابن قتيبة ومروية عن أبى ليلة ، وهو لم يقابله ، حيث ولد بعده بمائة وعشرين سنة.

• • •

كذلك فإن محاولات التغريب تعمل على إحياء ملتقطات من هنا وهناك فى سبيل الادعاء بأن الأدب المكشوف كان قائماً فى مجال الأدب العربى بعد الإسلام ، وهى محاولة خادعة تحاول التقاط بعض المواقف من هنا وهناك ، من خلال المرحلة التى غلب فيها الأثر الفارسى القديم والتى غلب فيها السجع والمحسنات اللفظية ، وقد جاء ذلك بعد غلبة طابع الترجمة الذى كانت له آثاره البعيدة المدى على مرحلة محدودة من مراحل الفكر الإسلامى والأدب العربى .

فإذا قيل أن الأدب العربى قد عرف الأدب المكشوف حيناً من الدهر ، قلنا إن ذلك لم يكن بدافع الفطرة بل كان غزواً شعوبياً على النحو الذى نواجهه اليوم ، وأن هـذا اللون إنما دخل على أيدى المتصلين بالثقافات والديانات والفلسفات القديمة السابقة للإسلام وفى مقدمتها وثنية اليونان ومجوسية الفرس وغنوصية الهند .

وإن ذلك كله جرى فى نطاق المؤامرة الخطيرة التى قامت بها قوى الباطنية والمجوسية والقرامطة فى محاولة لتدمير مفهوم الإسلام أساساً وتغليب مفاهيم الكشف والإباحة ووحدة الوجود والحلول والتناسخ وغيرها ، ومن خلال طائفة المجان الإباحيين بشار وأبى نواس وغيرهم .

ومن هنا دخل على الأدب العربى فى مرحلة من مراحله نماذج

من المجون والفحش واستشرى فى الهجاء والخمريات والشعر الخليع غير أن الصحوة الإسلامية التى واجهت الفكر اليونانى استطاعت أن تحرر الأدب والشعر وأن يعيده إلى مجال الأصالة .

وكذلك تجدد الأمر فى العصر الحديث فى محاولة لفرض مجموعة محتقرة من المجان فى عصرها ليصور القرن الثانى الهجرى كله بأنه عصر مجون وفساد وفيه أئمة الفكر والفقه والدين والعلم .

ونرى اليوم معالم أسامة الأدب العربى والعلوم الإنسانية والثقافة والمعرفة والمصطلحات تنطلق إلى مداها فى سبيل تحرير الفكر الإسلامى من التبعية .



رقم الإيداع ١٩٨٩/٣١٨٦

مطبعة دار البيان بمصر
تليفون ٩٣٨٦١٩